القصّة الموجّهة للأطفال بين الفن والتربية.

إسماعيل سعدي

طالب دكتوراه بجامعة محمد بوضياف المسيلة

إنّ القصّة الموجّهة للطفل هي وسيلة قويّة لتربية الناشئة على القيم ،وتدخل ضمن البيداغوجيا المعاصرة (pédagogie moderne) التي راهنت على مبدأ الحوار والتواصل واللاّتوجيه، لكن ضمان هذا الرهان التربوي لإنتاج القيم وهندسة المجتمع المتفاعل مع المستجدات العالمية ضمن المنظور الإيتيقي (Ethique) للفلسفة كرؤية عقلانية للعالم ، نجد القصّة قد فقدت جانبا مهما من القيم الجمالية، ومع وجود الطابع المعياري (Normatif) للقيم تجنح القصّة إلى اللاتوازن بين الجانب الوجداني للطفل وبين الجانب الابستيمولوجي و السلوك .

وفي هذه المداخلة نروم البحث في نماذج قصصية لنتعرف من خلالها على مدى الموازنة بين الجانب الجمالي نصّا ونصّا موازيا (الصور) وبين الوظيفة التربوية .

Le conte destiné aux enfants est un moyen non négligeable pour inculquer les valeurs aux jeunes. Il fait partie de la pédagogie contemporaine (pédagogie moderne) qui mise sur le principe de la communication et le dialogue. Mais parallèlement à ce pari éducatif visant la production des valeurs et la préparation d'une société en interaction avec les changements à travers le monde dans une perspective éthique à titre d'une philosophie évoquant une vision rationnelle du monde, il se trouve que le conte a perdu un aspect important des valeurs esthétiques, en particulier en présence d'un caractère normatif des valeurs où le conte a tendance d'être en déséquilibre entre le côté émotionnel de l'enfant et entre le côté épistémologique et la conduite.

A travers cette communication, on vise la recherche de modèles de contes pour identifier l'équilibre entre l'aspect esthétique du texte et co-texte (images) et la fonction éducative

.

توطئة :

إنّ الكتابة للأطفال ليست أدبا فرعيا من أدب الكبار، أو عملا هامشيا من الدرجة الثانية، بل ثقافة أساسية تخصّ الأطفال ككيان مستقل له مداركه، وميوله، وثقافته، وهو مكمن الصعوبة لأن " الكتابة للأطفال تتأتّى –حسب رأي علماء النفس والتربية –من أن الفترات الأولى من حياة الطفل صعبة؛ إذ ليس من السهولة فهم دوافع الطفل أو سلوكه، أو حصر مدركاته وتوجّهاته" [1]، كما أنّ ثقافة الطفل تختلف من مجتمع إلى آخر تبعا لإطار الثقافة العامّة من جهة، وإلى توجّهات كل مجتمع وإيديولوجيته من جهة أخرى، وبين هذه التوجّهات وبين حاجيات الطفل تظهر مشكلة الموازنة بين تحقيق المتعة الفنّية الجمالية وبين وظيفة القصّة من حيث تجسيد فلسفة القيم التربوية للمجتمع. ومن وحي هذا التصوّر سنحاول في هذه المداخلة معالجة مدى تحقيق الموازنة بين الجانب الجمالي وبين الجانب القيمي في القصص الموجّهة للأطفال في الجزائر من خلال نماذج مختارة.

نتغيا في البدء الوقوف على تحديد بعض المصطلحات والمفاهيم التي تؤطّر هذا البحث تحديدا نسبيا لاختلاف التعريفات وكثرتها، بل وتباينها في بعض الأحيان، ونكتفي بما كان عليه اتفاق أكثر الباحثين ، خاصّة، ونحن في مجال أدب الأطفال الذي مازال حديث العهد، لم تؤسس له قاعدة نقدية يتكئ عليها الباحثون، وفي صلب هذه العلاقة المعقدة ووسط هذه الضبابية بين المصطلح ومفهومه نسعى جاهدين إلى ضبط مكونات بحثنا الموسوم بـ (القصّة الموجّهة للطفل الجزائري بين الفنّ والتربية) .

القصّة :المعنى اللغوي:

يقصد بالقص في اللغة العربية –كما ورد في في مختلف المعاجم [2]، قصّ الأثر أي تتبُّع مساره ورصْد حركة أصحابه، والتقاط بعض أخبارهم، ومن هذا المعنى قوله تعالى في سورة الكهف﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصَا﴾ [3]، وفي سورة القصص يقول الله تعالى:﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [4]، ويقال اقتصّ أثره، وتقصّص أثره. والمعنى الثاني هو الإخبار والرواية ، و هو وطيد الصلة بالمعنى الأوّل، فالقصّة على نحو ما تتبّع لآثار شخص أو أشخاص وتلمُّس أخبارهم ، والقصّة الأمر والحديث [5].

أما من حيث المعنى الاصطلاحي فإنّ القصّة عرفت تعريفات كثيرة اتفقت من حيث المعنى في كثير من الأحيان وإن اختلفت ألفاظها، فلكل دارس تعريفه ونكتفي في بياض هذا البحث بتعريف الناقد السوري (محمد قرانيا) الذي يقول:" إنّ قصّة الطفل النثرية هي جنس أدبي نمطي يُسرد أساسا للأطفال كي يقرؤوه، أو يُقرأ لهم ، قصد التسلية والإمتاع، تراعى في تركيب عناصره، وتحديد أجناسه وأنواعه، الخصائص النوعية والذاتية لنموّهم الجسمي والنفسي والعقلي والاجتماعي والخلقي واللغوي، ثم الخصائص الموضوعية الخارجية، وكذا المكوّنات العامة للجنس الأدبي وسمات النوع" [6] .

لكن هل عرفنا الطفل حتّى نكتب له أو عنه؟

يفضي هذا السؤال إلى التطرق أيضا إلى معرفة المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة طفل، فهو من الناحية اللغوية " الصغير من كلّ شيء، وهو الحاجة، ويقال للنار ساعة تُقدح طفل، أي بداية، والتطفيل السير الرّويد..." [7]، إنّ هذه الدلالة تحيلنا إلى سيرورة نمو هذا الكائن من صباه إلى احتلامه، أمّا من حيث الجانب السيكولوجي فيبقى الطفل غامضا رغم تقدّم البحوث، فهذا المدلول " لا يمثّل اليوم مفهوما واضحا على الرغم من تقدّم المباحث السيكولوجية،لا من الناحية الدلالية ولا من الناحية التاريخية والجغرافية ، ويرجع عدم الوضوح هذا إلى اختلاف النظريات الفلسفية والتربوية في مقاربته" [8]ومع ذلك فلا مناص من تقديم تحديد أوّلي يراعي خصائص هذا الكائن وحاجاته المختلفة وشروط عيشه :" إنّه كائن يولدمزودا ببعض الخصائص العضوية والفيزيولوجية، وله حاجاته السوسيولوجية والنفسية التي يعتبر إشباعها ضروريا لبقائه ونموّه، وهو يعيش في وسط اجتماعي لا غنى عنه، عليه أن يتعلّم كيف يتوافق معه كي يسدّ حاجاته النفسية والاجتماعية" [9]، وينبغي للمساهمين في تثقيفه أن يدركوا بأنّ الطفل –خاصّة في عصرنا الحالي– يأبى القيود وينفر من السّلطة والتسلّط، زمنه زمن الحرّية يملك خيالا جموحا، كثير التساؤل، قليل الصبر، سمته التطلّع لكل جديد، لكن مجتمعاتنا العربية مازالت تعتقد –للأسف الشديد– بأنّ الطفل رجل كبير لا يحق له أن يخطئ، فهي تعاقبه بالزجر والتخويف وتنكر عليه حقّه في الحلم،

وتضيّق عليه عالمه الرحب ، والأدهى والأمر أن تنتقل هذه العدوى إلى مثقفينا، فتترجمها أقلامهم في كتابات الأطفال بدعوى المحافظة على القيم .

البعد التربوي:

التربوي نسبة إلى التربية ، وهذه الأخيرة اشتقت في اللغة العربية "من ربا يربو بمعنى زاد ونما و أربيته: نمّيته، وهي تعني التنشئة ، ربوت في حجره ، نشأت، وربّيت فلانا: أربّيه تربية، وربّيته تربية أي غذوته... قال الجوهري هذا لكل ما ينمى كالولد والزرع ونحوه" [10] ، وفي اللغة الفرنسية كلمة (éducation) مشتقة من (éducare) بمعنى قيادة أو إخراج إلى... يوحي الاشتقاق اللغوي أنّ ربّى يتضمّن معنى إخراج الطفل من حالته الأوّلية الطبيعية أو أن تساعده على إخراج ما لديه من فضائل وتحيينها" [11] ، فالتربية –إذن– تعني تطوير وتنمية الخصائص الجسمية والعقلية والخلقية الكامنة بكيفية منسجمة لدى الطفل، فيتحدّد سلوكه ويتشكل وجدانه وفق ما يصبو المجتمع إلى تحقيقه وتجسيده في رجل المستقبل، "والتربية العربية الإسلامية تعنى بغرس وتنمية خصائص في الشخصية العربية، ولعلّ من أهمها التمسك بالقيم الروحية والخلقية، فضلا عن حرّية الفكر والانفتاح على المصادر المختلفة للثقافة وأن تنمي في الفرد قدرات ومهارات واتجاهات معيّنة ...مثل تغليب المصلحة المشتركة(الإيثار)، وكذلك أهمية العمل" [12]، فالقصّة –إذن–إحدى السبل التي ينتهجها مثقفو الأمة لغرس القيم الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة في هذا المجتمع.

البعد الجمالي في قصص الأطفال:

من الناحية المعجمية نجد كلمة الجمال اشتقت من فعل "جمُل وهو الحسن ويكون في الفعل والخَلْق، وجمّله أي زيّنه" [13] . وما يقصد بالجمالي في هذه المداخلة لا يعد أن يكون الفنّ الذي تتصف به القصّة الموجّهة للأطفال بعيدا عن المعنى الفلسفيأو العلمي كما تناوله تاريخ الفلسفة، أو علم الجمال، فجمالية أدب الطفل–بشكل عام– تتجسّد في "مجموعة القيم الترويحية (التسلية–اللعب)، الخبرة الجديدة، الإثارة، الجمال، المرح، التعبير الذاتي المبدع" [14] ، أما في القصّة فالجانب الجمالي "يشيع في الأشياء ، من خلال أشكالها، وألوانها المريحة

للنفس، وتناغمها وتوازنها وأصواتها..وهذا يوضّح أهمية القصص التي تؤنسن الأشياء، وتستنطق الحيوان، وتفتح آفاقا لا حدود لها في وعي الطفل" [15] ، لكن فريقا ذهب إلى أن القيمة الجمالية لا تظهر بين السطور ، بل من خلال التفاعل الحاصل بين القصّة والقارئ أو المستمع لها ، " فالقيمة الجمالية ترتبط بالمتلقي أو المتذوّق لموضوع جميل فهو الذي يضفي من إحساسه على هذا الشيء ، فيصبح بالنسبة إليه جميلا" [16]، وبهذا الطرح فإنّ الوعي الجمالي هو القدرة على التذوّق أو الشعور أو الانتباه إلى القيمة الجمالية التي توجد في القصّة من خلال نصيها المكتوب والموازي وقدرتهما على الوصف الدقيق الذي يأسر الأبصار قبل العقول.

القصّة للأطفال نوع أدبي رفيع، وتشكيل فنّي رائع يتضمن رسائل تحمل قيما تثير ذائقة الطفل، وتعمل على تعديل وصقل سلوكه من خلال تصوير الحق والعدل والخير وزرع السرور والبهجة في نفسية الطفل للتنفيس عن مكبوتاته ، والقيمة الجمالية قيمة ثرية متسعة،المجال ،متعدّدة الخصائص والسمات، كثيرة الارتباطات فهي ترتبط بالتراث، وبالوعي الجمعي، وبالمستوى الثقافي، وبالمناخ الاجتماعي والنضج النفسي.

القيم التربوية في قصص الأطفال:

إنّ وظيفة التربية الرئيسة هي تمكين الأطفال من تنمية شخصياتهم، من جميع جوانبها المعرفية والوجدانية، في توافق وتوازن وانسجام، دون تغليب جهة على أخرى، فكما يجب أن تتحقّق الفاعلية التربوية من خلال التركيز على الرهان الابستيمولوجي والتربوي حريّ بالمربّين اعتماد الجانب النفسي كاهتمام أساسي يجب التركيز عليه، وإلا اختلت العملية البيداغوجية، وحدثت المفارقة التي تؤدي إلى حدوث علل نفسية وأخرى اجتماعية أهمّها: " انتشار القيم الغربية الدخيلة على المجتمع العربي، فتنتشر السلوك الغربية وتلغي الكثير من القيم والعادات ونماذج السلوك التي تناقلها الآباء عن الأجداد، وموضوع القيم ليس شيئا جديدا في ميدان الفلسفة فقد تمت دراسته بعناية كبيرة واهتمام عظيم من قبل رواد الفكر الفلسفي؛ و الأمر الذي نروم الكلام عنه في هذا الشق من البحث هو إجابة للسؤال التالي: إلى أي درجة

ركّزت قصص الأطفال على تقديم القيم التربوية الموروثة التي تعد مرآة المجتمع من خلال قصص الأطفال؟

البعد التربوي في قصة البحيرة العظمى:

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نرصد كل القيم التربوية في القصص الموجّهة للأطفال في الجزائر، فهذا مشروع يحتاج إلى جهد كبير ووقت وفير، لكننا سنقتصر على بعض النماذج ومنها نص البحيرة العظمى لأحمد منّور والتي يمكننا فيها استكناه عناصر القيم التي ترتبط ارتباطا وثيقا ببيئة المتلقي العربي بكل يسر، لأنّ الكاتب عمد إلى استعمال ما يصطلح عليه بالوصف البصري الذي يبرز تفاصيل دقيقة عن الاعتقادات والأعراف، وطريقة التفكير وعن سلوكات الفرد والمجتمع، والذي يعرّفه (فليب أوغتيل PhilipeOugtel) بقوله: "إن الوصف البصري تقنية تسمح بوصف شخصياتوأمكنة، ومشاهد، أو جزئيات مشهد، كما لو كانت لوحات أو مواضيع لوحات..." [17]، وقد تضمنت القصة قيما كثيرة منها: الدينية والاجتماعية والذاتية والقومية وكلّها تساهم في إنماء الهوية الثقافية للطفل.

القيم الدينية في القصّة:

إنّ كل أمّة –صاحبة رسالة– تعمل على تثبيت القيم الدينية في نفوس أبنائها للمحافظة على هوية الجيل الجديد وحمايته من الاغتراب؛ والأمّة الإسلامية جديرة بغرس القيم في نفوس أبنائها، حتّى يكون الإسلام منهج حياتهم، وصانع حضارتهم ، فتظهر آثار الدّين في سلوكاتهم ومعاملاتهم مع المسلمين ومع غير المسلمين.

ولقد وظّف الكاتب القيم الإسلامية في قصّة (البحيرة العظمى) في كثير من المواطن ، وتجسّدت في نسق متكامل برز في أقوال شخصياتها وفي أفعالهم بأسلوب فنّي جذّاب يناسب احتياجات الطفل الروحية، كما عمد إلى توظيف لغة القرآن الكريم فاستلهم بعض ألفاظه ليوظّفها في القصّة ومنها، مثلا،(البحر اللّجي) من الآية الكريمة ﴿ أَ وْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾" [18] ليصف ركم السّحاب الذي دخلت فيه

الطائرة ، قائلا:" صارت كأنّها تنزلق على بساط من القطن الأزرق ... كأنّها قارب صغير يسبح في بحر لجّي." [19] و لا شكّ أنّ الكاتب يدرك أنّ اللغة تؤدّي دورا حاسما بتأثيرها في الأطفال، لا باعتبارها وسيلة تواصل وفقط، بل هي وعاء ثقافي يساهم في تنشئة الفرد تنشئة اجتماعية تميّزه عن الآخر.

إنّ استلهام الكاتب للقيم الدينية في القصّة دليل على عمق اتصاله بالثقافة الإسلامية، وهو ما أراد طبعه في نفسية القارئ الصغير لفظا ومعنى وقدوة، حتّى يشبّ الطفل على عقيدة إسلامية، مُحصّنا من كلّ نسخ أو مسخ ، فقدّم لنا في بداية القصّة صورة فوتوغرافية لـ(ياسمين) التي ظهرت تلبس لباسا محتشما" تغطّي شعر رأسها ورقبتها بخمار"[20]، ومن المؤكد، أنّ الصورة أصبحت تتّخذ موقعا خطيرا في الخطاب المعاصر المنتج للقيم الإنسانية والمصدّر لها، ولذا بات من الضروري تفعيل ضوابط القيم في المجتمع لتعميق إحساس الطفل العربي بهويته وانتمائه لأمّته الإسلامية.

تضمّن النصّ،أيضا، قيما أخلاقية هي من صميم ديننا الحنيف، لا يمكن أن نرصدها جميعا، بل سنقف عند بعضها لأهميتها في التنشئة الإسلامية للأطفال، وأولاها التواضع شيمة العلماء، فعند استقبال العالم (البركاوي) من طرف (ياسمين) بالورود قال لها :" أُلفِتُ نظرك أنّ مثل هذا الاستقبال يُخصّص عادة للملوك والرؤساء، وأنا لست منهم" [21]، وهي رسالة مشفّرة يفهمها اللّبيب من الأطفال مُفادها أن العلم والتواضع صنوان.

ومن المسائل المهمة التي تنبّه لها الكاتب ووظّفها في القصّة هي إعداد الطفل ليعيش إيجابيا في المجتمع، يختلط بالآخرين دون أن يقع في المحظور، ومثال ذلك عدم رفض البركاوي وزملائهحضور مأدبة العشاء التي أقامها على شرفهم سكان البحيرة، وهم من الوثنيين، لكن بالمقابل عدم التضحية بأحكام الشرع وحدوده، فعندما جيء بعجل سمين ليذبح لعشاء الضيوف، قدّم الكاتب إشارة للمتلقي الصغير، ليهيئه لمواجهة ما يعترضه من أزمات، ويزرع في نفسه الوازع الديني مقابلا للاعتزاز بالدين الذي ارتضاه الله له، وذلك حين وضّح له أنّالقوم لا دين لهم، وعلى الجماعة أن تهتدي لطريقة تخلّصهم من أكل اللحم الحرام ،

فكان الميكانيكي (عزيز) هو من "طلب منهم، عن طريق الإشارة، أن يعطوه السكّين فسلّموه إياه فذبح العجل"[22]، وخلّص المدعوين من حرج رفض الأكل.

زخرت قصة البحيرة العظمى بالقيم الإيجابية التي تهدف إلى بناء شخصية طفل عربي مسلم مسلّح بالعلم، يواكب النهضة العلمية في الألفية الثالثة. والقصّة عبر تحقيق حلم (مريم) في حصولها على الببغاء المعروف بإعادة الكلام دون زيادة أو نقصان من أناس مازالوا يعيشون الحياة البدائية، لا يعرفون الكذب والنفاق إنّما هو ترسيخ لصدى البراءة والفطرة وإصرار على ضرورة التحلي بصفة الصدق مقرونة بالعلم لتحقيق رقي وازدهار الأمّة، وهي رسالة مشفّرة –أيضا–يفهمها القارئ الصغير، مفادها أن العلم والكذب لا يجتمعان، ويؤكدها الحوار الصادق الذي دار بين الشخصيات، ويُلمس فيه تحقيق الوعود التي أبرمت بينهم ليبيّن للمتلقي أنّ أمتنا هي أمّة صدق وأمانة.

واستطاع الكاتب أن يوظّف الصدق في الجانب الشكلي للقصّة ، وهو مصطلح عرّفه نجيب الكيلاني بأنّه" توافق التعبير مع المعنى، والتسلسل المنطقي المقنع للوقائع، والرباط الوثيق بين الشكل والمضمون مما ينتج عنه التأثير عقليا ونفسيا ووجدانيا" [23] ومن هذا الترابط ،مثلا، التنسيق البديع بين الشخصيات الذي تضمّن تواصلا بين ثلاثة أجيال (البركاوي) ويمثّل مرحلة الشيخوخة و(أسامة عبد الهادي وزوجته) ويمثلان مرحلة الشباب، والطفلة(مريم) التي تمثل مرحلة الطفولة، وهو نقد اجتماعي للهوّة الكبيرة بين الأجيال في عصرنا، والصراع القائم بين القديم والحديث، فأراد أن يقدّم إشارة قوية إلى ضرورة العمل التكاملي و العلم التراكمي المبني على توريث السابق للاّحق، فكل جيل يكمل مسار آبائه وأجداده في البناء والتشييد و تحصيل العلوم .

ولعلّ توظيفه المنطقي للأحداث وإبرازه للشخصيات المتميّزة المرتبطة إلى أصالة الأمّة، تحمل صفات تلتقي ورغبات الطفل وحاجاته، ما جعل القصّة أقرب إلى الواقع من الخيال حيث يرى فيها نفسه وهي تتخلّص من الجمود لتحقّق أحلامه.

القيم الاجتماعية في القصّة:

تبشّر القصّة بمجتمع إنساني جديد متآخ، تسوده قيم اجتماعية كالمساواة والعدل والسلام، يتعايش فيه الإنسان مع أخيه الإنسان الذي يختلف عنه عقائديا أو فكريا بأساليب الدياليكتيك و التثاقف المرن المبني على الندية والاحترام، بعيدا عن النظرة الدوغماتية القابعة في الوعي الجمعي والتي مفادها اعتقاد الأنا وحده من يملك ثقافة تضمّ القيم الأخلاقية السامية دون سواها من الثقافات.

والسلام قيمة أخلاقية وموقف إنساني، لا يمكن فهمه إلاّ في مقابل الصراع الثقافي الناجم عن اختلافات في القيم الثقافيةوالعقائدية، التي تؤدي إلى حدوث خلافات بين البشر ، ولقد عالج الكاتب هذه المشكلة التي عايشها في فترة التسعينيات – في الجزائر– والتي خلّفت وضعا تاريخيا لا يحتمل، يعبّر تعبيرا صارخا عن اللاّتسامح وعن عدم القدرة علىالتعايش السلمي ، وهو يدرك (أي الكاتب) أنّ الأطفال هم رجال المستقبل و مثلما "تهيّأ للصغار أن يرضعوا الحليب من الأثداء، تهيّأ لهم أن يرضعوا شيئا من ثقافة المجتمع من خلال امتصاصهم التدريجي لبعض عناصرها"[24]، فجعل الكاتب من البحيرة العظمى دعوة للتسامح والتعايش السلمي بين البشر مهما كانت توجهاتهم العقائدية، وما يحملون من قيم ثقافية شتّى، وهذا مدار الفكرة التي وردت في نهاية القصّة والتي حملت حكمة العالم (البركاوي) وقدرته على التواصل مع سكان البحيرة الذين يختلفون عنه من حيث العقيدة والقيم الثقافية، لكنّ أسلوبه في التواصل معهم كان حضاريا؛ حيث "خرج بمفرده أمام الخيمة، ولوّح بيده للرجل الذي كان يتقدّم المجموعة ، وبسط له كفّيه الفارغتين مُريدا أن يفهمه بذلك بأنّه لا يملك سلاحا، ولا يريد به شرّا، ثم أشار إليه بودّ أن يأتي عنده" [25]وإظهار الودّ هو أولى خطوات التواصل، فالطفل الفاقد لهذه العلاقة العاطفية لا يمكنه أن يؤسس لحياة سلمية ، و الذي لا يجد في الوسط المحيط به علاقات عاطفية ستتخذ علاقاته مع الآخرين طابعا عدوانيا ساديا [26].

استثمر الكاتب أيضا قيمة اجتماعية محبّبة لدى الأطفال تجعل الطفل يطير فرحا وهو يعرض خدماته من أجل القيام بدور معيّن ضمن عمل جماعي ، فوظّف الكاتب قيمة التعاون منذ التحضيرات الأولى للرحلة ؛ كلّ فرد يقوم بعمله على أحسن ما يرام ،لا يتوانى ولا يتكاسل كي لا يحدث شرخا في التنظيم العام للرحلة. أعطى نموذجا مصغرا لأفراد الأمّة في تعاونها وتآزرها من أجل تحقيق هدف أسمى يكفل التقدم والازدهار للأمّة العربية الإسلامية؛ فصلاح المجتمع يبدأ بصلاح الفرد الواعي بواجبه القومي، ليضع بصمته في توجيه الثقافة المستقبلية ويتّسق ذلك مع ما توصل إليه (بنجستون) "من أنّ القيم تمضي في ارتقائها من الفردية والخصوصية إلى الاجتماعية والعمومية" [27] .

الحكاية الشعبية هل تقهر قلب المتلقي وعقله؟

إذا كان (أحمد منّور) قد قدم بعض القيم التربوية في النص والنصّ الموازي دون أن يجرح إحساس الطفولة بالعنف اللغوي، فإنّ الكاتبة الجزائرية (جوهر حيدر) قد نقلت بعض الحكايات الشعبية و تصرّفت في لغتها، لكنّها رغم المضامين التربوية التي تبرز فيها صراع الخير والشر وغلبة الأوّل في نهاية أغلب القصص في السلسلة ،إلاّ أنّ هناك ما يقال في توظيف حكايات الجدات بغثّها وسمينها، دونما تصرّف في المضامين التي أصبحت فيها بعض الأساليب تهين عقل المتلقي في عصرنا الحالي وتحتقر قدراته وهو ابن عصر الحاسوب والانترنت، وبالمقابل لم تراع نفسيته وهو الذي أنهكت كاهله في هذا الزمن الأخبارُ المرهقة من قتل وتشريد لأطفال في مثل سنّه، جرّاء الحروب وانتشار العنف.

ولرصد بعض القيم التربوية في القصّة ارتأينا أن نبدأ بالغلاف الخارجي ، فالنصالموازي كما يقول الشاروني:" تأخذ فيه الكلمات القليلة المكتوبة بحروف كبيرة،حيّزا صغيرا بجوار الصّور،يقرؤها الكبير للصّغير، أو يتعلّم الصّغير قراءتها عندما يبلغ السادسة أو السابعة، لكن تظل الصورة هي البطل الحقيقي لكتب الأطفال" [28]، و في هذه القصة تشغل الصور نسبة ضئيلة تقدّر بـ: 9.37بالمئة من مجموع الصفحات، ممثّلة في ثلاث صور هي: صورة كبش، مع صورة امرأة يبدو على ملامحها الهلع والخوف ،في حالة فرار والريح تدفع لحافها.

والصورة هي جوهر الفنون بما تنتجه من لغة ذات قوّة تعبيرية عالية ،تنقل الكثيرمن الدلالات والرموز والإيحاءات التي يُعبَّر عنها في الكتب بعشرات الصفحات؛ وهي في أدب الطفل – بالإضافة إلى أنّها وسيلة إيضاح وإبراز للمعنى–هي ذات أهمية كبيرة في تنمية الإبداع وسعة الخيال؛وإذا كان الرسّام قد قدّم صورة امرأة جزائرية تلبس لباسا تقليديا محتشما و هي التفاتة ذكية لاستعادة التراث الجزائري وتملّكه من جديد بعد أن صادرته وحاصرته عوالم الصورة الغربية المنتشرة في شتّى وسائل الاتصال والتي استطاعت بتقنياتها العالية أن تفرض نفسها فتسلب النظر، وتغازل العيون، وتكيد لتراثنا كيدا ، وتنصب لنا الفخاخ والحبائل ،وتتلوّن بألف لون لتنخر هويتنا وتقضي على ماضينافإنّ الحرّية الضخمة التي أتيحت للفنّان في رسم بعض واجهات الكتب والقصص هي في الحقيقة مسؤولية عظيمة ،إذ تمثّل الجزء الأكبر من هذا الأدب الخطير، لأنّ الصورة ببساطة توفّر قطاعا واسعا من المتلقّين على اختلاف مشاربهم،وتباين أعمارهم، يقرؤها الصغير والكبير ،الأمّي والمتعلّم، وهي أكثر رسوخا بالذاكرة ، خاصّة مع التطوّر السريع للصورة الرقمية التي تجعل المحسوس أكثر حسّية وأكثر لمسا . فهل كانت اللغة البصرية في هذه السلسلة على قدر من الوعي بحاجات الطفل الفنّية والتربوية ؟

إنّ الصورة الموجّهة للطفل في هذه المرحلة–حسب الدارسين– يجب أن تكون كلاّ مكتملا مركبا تشمل الجانب الحسّي والعقلي والمعرفي والإبداعي [29]، ولها صلة قوية بالموضوع، فإذا كان صاحب النص يستعمل اللغة بدءا باختيار الألفاظ الجيّدة والتراكيب السليمة والأساليب القوية لينفذ إلى عقل الطفل ، فإن الأديب الرسّام ينتهج نحوية الصورة بتفاصيلها و بمباهج ألوانها ورمزية حركاتها ، ليخترق وجدان الطفل فتُحدث مع النص اللغوي تراسلا وتناغما يقوّي الدلالة ويبهج المتلقي، لكن صورة الغلاف الخارجي –محلّ الدراسة– نرى الرسّام يوطّن قهر المرأة وضعفها في نفسية الأطفال ذكورا وبناتٍ، و يكرّس سلبيتها من خلال فرارها وإظهار خوفها، وهي قيمة اجتماعية سلبية تمثل ما تركه السلف للخلف من قهر رجولي، وإرساء للخوف و تكريس للجبن وعدم المواجهة.

أما في النصّ القصصي(بنت الهم)هي بطلة القصة و اسمها (عائشة) وجدت نفسها في صراع غير متكافئ مع الغول الذي نغّص عيشها، وجعل المجتمع يرفضها ويرمي بها إلى الشارع، إلى أن تدخلت شخصية مساعدة تمثلت في السلطان الذي قتل الغول وأعادها إلى زوجها الأمير، لتعيش في أمن وسلام .

القصّة من التراث الشعبي ، تختلف روايتها من منطقة إلى أخرى ،لكنّها في هذه السلسلة جاءت تحمل الكثير من الأحداث المرعبة والصفات السلبية، فالكاتبة حافظت على نفس النسق الذي رُويت به الحكاية، بَطَلتها إنسانة ضعيفة الشخصية وسيلتها الوحيدة هي الهروب والبحث عن جعل حدّ لحياتها، حيث كانت في كلّ مرة تقول للغول" اقتلني ولكن حاجة الناس لا تقترب منها"[30]وبعد أن ضاق بها الأمر ذرعا لجأت إلى مخاطبة سكين الغدر قائلة:" يا سكّين الغدر اغدر بي وأرحني من هذه الحياة التعيسة" [31]،وفي القصّة تكريس للروح الانهزامية اليائسة وإلحاق صورة الضعف بالمرأة في جلّ القصص التراثية الموجّهة للأطفال وهو ما يفسر معاناة المرأة عبر الزمن لويلات السيطرة الذكورية ،نقلتها الراويات عن طريق العقل اللاواعي .

كما ظهرت صور العنف المفزعة مع عدوانية الغول في تكسير الأواني وقطع أصابع الرضّع، بالإضافة إلى تعاضد النصّ مع الصور المرعبة للغول التي صاحبت المتلقي الصغير في صفحات القصّة هو من دون شكّ جرح للمشاعر يزيد من تفاقم مشكلات الطفل، الذي أصبح في وقتنا الراهن عرضة للاختطاف والقتل والتنكيل بجسده وسرقة أعضائه بل وحرقه .

مقلاع فاتح والنص اللاّموازي :

أما في القصّة الثانية الموسومة بـ(مقلاع فاتح) لمزيان أحمد فقد استعمل على غلافها الرسّام الألوان المحبّبة لدى الطفل، فالأحمر والأبيض والأسود والأصفر والأخضر والأزرق هي ألوان "تحتلّ مكانا بارزا بين جميع الألوان ،ولذا يحس بها الأطفال خاطفةً للبصر أكثر، وأسهل في التذكر" [32]وهذه الألوان ترتبط ارتباطا وثيقا بالثقافات والعادات

والتقاليد والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه المرء ؛ هي سمات يتوارثها المجتمع كابرا عن كابر "وإذا ما اختلف النسق الاجتماعي والثقافي اختلفت بالضرورة الدلالات المرتبطة بالألوان، لكنّ صورة الغلاف أظهرت صورة طفل يتطاير الشرر من عينيه ويبدو ممتقع الوجه يحمل مقلاعا بيديه ويصوّبه للمتلقي وهي صورة –دون شكّ– تكرّس استعمال العنف من خلال المقلاع المصوّب تحديدا نحو القارئ الصغير تذكّره دون شكّ في ظاهرة لا تكاد تختفي من شوارعنا حتّى تظهر من جديد وتخلّف خسائر مادية ومعنوية وهي استعمال المقلاع من طرف الأطفال ورمي الحيوانات والعصافير والشرفات وفي هذا تكريس لسلوكات غير حضارية، ولو أنّ الرسّام اكتفى بصورة القدس الشريف، أو علم فلسطين، أو شجر الزيتون لكان الأمر مرغبا لا مرهبا ، إضافة إلى الرسومات الداخلية التي لم تكن موازية مصاحبة للنص، بل كانت مرهقة للمتلقي الصغير في فك شفرات حروف النص والبحث في أغوار الذاكرة من أجل إيجاد المعنى ، فهي صور ساهمت في ضبابية النص، وحجبه عن أعين المتلقين، ولو اكتفى الرسّام باستغلال الصفحة المقابلة للنص لكان الأمر أكثر يسرا ووضوحا .

جمالية السرد الحكائي والترميز الفنّي في (مقلاع فاتح) :

إذا كانت الرسومات في القصّة قد انحرفت عن الجانب الوجداني للطفل فإنّ النص الموجّه للطفل قد حمل قيما تربوية أصيلة في قالب سردي ، اتّخذ الوصف فرشا ممهدا للوصول إلى الهدف الذي يوصل المتلقي الصغير إلى الهدف بصورة غير مباشرة ليضمن تعلّق أفئدة المتلقين الصغار بالمحكي ، ويشغلّون أفكارهم من أجل الوصول إلى الرميّة ، فبدأ بداية تبعث الاعتزاز بالانتماء العربي من خلال إظهار الجانب البطولي لشباب لم يعرفوا الوهن ولا اليأس من أجل الدفاع عن وطنهم (فلسطين)، ولم يبدأ في سرده بعدائية العرب ، بل وجّه تفكير المتلقين إلى صورة الصهاينة وهم يعيثون فسادا في الأرض الفلسطينية " فكان فاتح ومنذ الطفولة المبكرة يرى جنود الصهاينة بين حين وآخر يقتحمون منزله ويفتشون ويعبثون بكلّ ما في المنزل من أثاث" [33]، وهي إثارة ذكية لرفضالضيم وضرورة الدفاع عن

النفس، وفي هذا المجال يصرّ أحمد منّور على ضرورة توجيه طاقة الأطفال توجيها سليما مثلما توجّه قوّة الرياضي [34]، تمتح الحكائية في النص من مخزون تراثي ذي أبعاد قومية تتصل بالذاكرة العربية وتتواترها الألسنة عبر الأجيال لتبرز فيها بطولات عربية عبر التاريخ لتصدّ الغزين الطامعين في البلاد العربية، فجاء الوصف الجمالي خفيفا رشيقا رغم سيطرة الحدث، من خلال المزاوجة بين الماضي والحاضر من خلال نقل بطولات الآباء والأجداد إلى شباب وأطفال اليوم.

إنّ القصّة عمل فنّي يمنح الطفل الشعور بالمتعة والبهجة وهو ميّال في مرحلة من عمره إلى متابعة قصص البطولة، لذا على المثقفين والكتّاب أن يصرفوا طاقة أطفالهم فيما يفيد، ويوجهوها توجيها سليما بعيدا عن العنف ، ولا شكّ أن الوصف الغزير لجمال الطبيعة في فلسطين من شأنه أن يحدث توازنا في نفسية المتلقي الصغير وهو يقرأ شيئا عن الحروب والغزوات التي حقق فيها الآباء انتصارات باهرة.

وفي الأخير نخلص إلى القول:إنّ القيم الجمالية في قصص الأطفال في الجزائر مازالت لم تأخذ نصيبها من الجدّية في التقديم بدءا بصورة الغلاف الخارجي وانتهاء عند الخاتمة القصصية التي تنتهي في أغلبها بالقتل أو التعنيف ، وتظهر القيم الأخلاقية أكثر توجيها ، فتطفو بصفة واضحة جلية على سطح قصص الأطفال بصورة مباشرة في أغلبها خاصّة في الحكايات الشعبية الجزائرية التي لم يراع فيها الجانب الوجداني للطفل من خلال عرض حكايات الغول والجن وغيرها والتي لا تتواءم وسن الطفل .

الهوامش والاحالات

[1] محسن ناصر الكناني:سحر القصّة والحكاية، البحث عن النسغ الصاعد في نصوص حكائية ونصوص قصصية للأطفال، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص9.

[2] ينظر مثلا: ابن منظور، لسان العرب،مادة (ق ص)

[3] الآية 64 من سورة الكهف.

[4] الآية 11 من سورة القصص.

[5] ينظر : الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير ، 266/2.

[6] محمد قرانيا : تجليات قصّة الأطفال، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، 2010، ص13.

[7] ابن منظور : لسان العرب، دار صادر بيروت، مجلد11، ط3، 1994، ص401-403.

[8] أحمد شبشوب: في مفهوم دلالات الطفولة، مجلة علوم التربية، الرباط، ع5، 1993، ص39.

[9] محمد يعقوب: الطفل والمجتمع، مجلة الموقف الأدبي، سوريا ، دمشق، ع103، 1997، ص178.

[10] ابن منظور: لسان العرب، مجلد 14، المصدر السابق، ص305-307.

[11] أحمد أوزي: المعجم الموسوعي لعلوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 2006، ص65.

[12] عبد الكريم علي اليماني: فلسفة القيم التربوية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2009، ص11-12.

[13] ابن منظور: لسان العرب، مجلد11، المصدر السابق، ص126.

[14] سمر روحي الفيصل: أدب الأطفال وثقافتهم-قراءة نقدية- مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1998، ص16.

[15] محمد قرانيا: جماليات القصّة الحكائية للأطفال في سورية، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، 2009، ص29.

[16] وفاء إبراهيم: الوعي الجمالي عند الطفل، مطابع الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1997، ص15.

[17] OUGTEL (Philippe) : « La littérature et photographie », in Critique, 678.

[18] من الآية 40 من سورة النور.

[19] أحمد منّور: البحيرة العظمى، ص 38.

[20] المصدر نفسه: ص4.

[21] المصدر نفسه:ص8.

[22] المصدر نفسه: ص64.

[23] نجيب الكيلاني: أدب الأطفال في ضوء الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1998، ص73.

[24] هادي نعمان الهيتي: ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة، ع123،ص49.

[25] أحمد منّور: البحيرة العظمى،ص59/58.

[26] ينظر: عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، مصر، 1963، ص7.

[27] بنجستون: نقلا عن عبد اللطيف محمد خليفة، ارتقاء القيم-دراسة نفسية- عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، ع160، ص162.

[28] الشارونيبعقوب:نقلا عن الربعي بن سلامة:من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي ،مرجع سابق،ص18.

[29] ينظر : عبد القادر عميش:قصّة الطفل في الجزائر،دراسة في المضامين والخصائص،الأمل للطباعة والنشر والتوزيع،تيزيوزو، الجزائر، ط2،2012ص 203.

[30] جوهر حيدر: بنت الهم، المصدر السابق، ص11-15-16.

[31] نفسه: ص26.

[32] أحمد مختار عمر :اللغة واللون، المرجع السابق،ص110.

[33] مزيان أحمد: مقلاع فاتح، دار الفكر العربي للنشر والطباعة ، الجزائر، ص6.

[34] ينظر: أحمد منّور، أدب الأطفال بين أزمة الكتابة وغياب جمالية الصناعة، حصة الفهرس، قناة الجزائرية ،2014.